لماذا العلوم الإنسانية اليوم

الكتاب الذي نقدمه للقارئ هو كتاب صغير نشرته مارثا نوسباوم عن أزمة تدريس الإنسانيات في التعليم (ليس كلاما جديدا. لماذا تحتاج الديمقراطيات إلى ثقافة إنسانية)، وقد رأينا عرضه بعد أن ثار في الآونة الأخيرة كلام كثير حول أهمية الدراسات الإنسانية وتدريسها في مراحل التعليم المختلفة، والعرض الذي نقدمه هنا يستفيد من عروض الكتاب نفسه وخاصة للكاتبين بيرلويجي بيلليني وكلاوديو جونتا.

يبدأ الكتاب باقتباسين، أحدهما من طاغور والآخر من ديوي، وكلاهما يندب أزمة التعليم الإنساني. وبقراءة ما كتبه طاغور في عام 1917 وديوي في عام 1915، فإننا اعند قراءة كتاب نوسباوم، نستخلص أن هذه الأزمة ليست قاصرة علينا، ولا هي نتاج اليوم، وإنما أخبر بها الإنسانيون منذ قرن كامل أو يزيد، ولذا أرى أنه لا يوجد ما يدعو للقلق حقا.

وهذا صحيح جزئيا، لأن الأمور تغيرت جزئيا بالفعل، وليس من غير المجدي ملاحظة هذه التغييرات وإعادة قراءتها. ما تغير، بين سنوات طاغور وأعوامنا، هو أن العلم والتكنولوجيا قد أحدثا ثورة في الطريقة التي نعيش بها؛ وأن الحياة، في المجتمعات الغربية، أصبحت معقدة للغاية لدرجة أنها تتطلب بشكل متزايد مهارات غير مطلوبة من المثقفين القادرين على تفسير العالم (الفلاسفة والمؤرخين) ولكن من الفنيين القادرين على إنجاحها (الاقتصاديين والفقهاء والأطباء).

ورغم أن تعليم العلوم الإنسانية "العامة" أقل قابلية للاستهلاك اليوم مما كانت عليه في زمن طاغور وديوي. فالفنون، كما كتبت نوسباوم، "ضرورية لتحقيق هدف النمو الاقتصادي وثقافة البيزنس السليمة . فالابتكار يتطلب ذكاءً جوهريًا ومنفتحًا وإبداعيًا، والآداب والفنون تحفز هذه المهارات، وعندما تنعدم هذه المهارات، سرعان ما تضعف ثقافة البيزنس". على افتراض، بالطبع، أن الغرض من تعليم العلوم الإنسانية هو تخريج "ثقافة بيزنس" (أياً كان ذلك البيزنس).

لا ينبغي لقسم الفلسفة أن يخرّج مدراء، بل ينبغي أن يخرّج علماء فلسفة أو حتى فلاسفة؛ فإذا أصبح الفليسوف مديرا، فهذا عظيم.

لذا فإن السؤال المطروح هو بالضبط: ما إذا كان التعليم الإنساني منطقيًا في حد ذاته، خارج (وربما ضد) "ثقافة البيزنس". تجادل نوسباوم بأن الكتب الجيدة تعمل على تكوين مواطنين ديمقراطيين صالحين. وهذا صحيح بلا شك، ولكن المسألة لا تتعلق بما تتم دراسته، بل بكيفية

الدراسة. تكمن المشكلة في أن تعليم المواطنين هو مسؤولية الدول ولمصلحتها. وفي الوقت الذي تصبح فيه الدول، أضعف وأفقر، فمن الصعب تخيل من سيتحمل هذا الاستثمار الذي ليست له عوائد في "الثقافة غير الهادفة للربح".

إنها ليست فقط ثقافة غير هادفة للربح، بل مثيرة للمتاعب السياسية، وغالبا ما تحتاج إلى نوع من الرقابة الرسمية أو الشعبية أو الدينية، وخاصة عندما تصبح منبعا للشك وعدم اليقين والمقاومة وما إلى ذلك مما لا يرضي الحكومات فتأنف من الإنفاق عليها.

ربما للتوقف عن التذمر يجب أن نعيد وصف الأشياء بطريقة مختلفة تماما. في القرنين الماضيين، عمل الروائيون والشعراء والفنانون والفلاسفة بشكل جيد. ليست التكنولوجيا وحدها هي التي غيرت الطريقة التي نعيش بها: إنها أيضا أفكارهم ، التي أصبحت بمرور الوقت مشاعر مشتركة ومفاهيم مشتركة. والحقيقة أن أوروبا عندما وصلت إلى أوج ازدهارها، وتدفقت عليها أنهار من أموال البيزنس، واستعمرت الكرة الأرضية تقريبا كلها، كان الأدب والفن يتم تدريسهما في المدارس والجامعات وأسهما في تكوين ما نسميه الآن "الإنسانيون"، الذين عملوا أيضًا بشكل جيد.

من المرجح أن يستمر منهج العلوم الإنسانية في الوجود، ولكن على الهامش قليلا مقارنة بما يسمى "التدريب المهني". في الواقع ، كان الأمر هكذا في الماضي أيضا ، لقد كان دائما هكذا. ربما ما نحتاج إلى المراهنة عليه هو انتشار الإنسانية، ونقل الفن والأفكار خارج الفصل الدراسي. إذا نظرت حولك - وشاهدت الأفلام ، واستمعت إلى الأغاني ، وقرأت المدونات - ستجد بعض علامات الأمل الخافتة التي تتعزز فقط ب "التدريب الإنساني" الذي لا توفره سوى الدراسات الإنسانية الجيد والعميقة.

إن القول بعدم جدوى المعرفة الإنسانية ليس أطروحة جديدة: فقد طرحتها على سبيل المثال في عام 1883 إحدى شخصيات زولا، وهو التاجر أوكتاف موريه، صاحب المتجر الذي يعطي عنوان الرواية الثالثة عشرة من روايات روجون-ماكوارت "ساعات النساء الطيبة". ويقابل خطاب موريه الموجه في الرواية إلى صديق طفولته بمديح واضح من المؤلف (الذي رسب في امتحان البكالوريا في ذلك الوقت): عليك أن تعترف بأن شهادتك لم تمنحك شيئًا مما كنت تبحث عنه... "هل تعلم أن رئيس عمال الحرير لدي يأخذ أكثر من اثني عشر ألف فرنك هذا العام؟ ! هذا صحيح إن شاباً ذا ذكاء واضح اكتفى بتعلم القراءة والكتابة والحساب... وفي محلّي يتقاضى مساعدو المتاجر البسطاء ما بين ثلاثة وأربعة آلاف فرنك، أي أكثر مما تتقاضاه أنت، فضلاً عن أن تكاليف تدريبهم أقل من تكاليف تدريبك ولم يطلقهم أحد إلى الدنيا بوعده أن يغزوها...

طبعاً ليس المال كل شيء. ولكن إذا كان عليَّ أن أختار بين الشياطين المساكين الذين يغزون المهن الحرة ليجوعوا أنفسهم وبين الرجال العمليين المسلحين مدى الحياة الذين يعرفون تجارتهم حق المعرفة، فلا شك عندي في الانحياز إلى هؤلاء، لأنهم فهموا العصر الذي نعيش فيه**!"**

كلمات تبدو مألوفة بشكل مشؤوم لأولئك الذين يشهدون اليوم، في ظاهرة عالمية لا تنفرد بها أمة دون الأخرى، محاولة لتفكيك التعليم الإنساني، باسم النفعية التي تنكر قيمة كل ما لا ينتج نموذج فوري قابل للبيع والاستهلاك، وتعتبر الثقافة تكلفة زائدة، وتجعل من الكفاءة التقنية وسوق العمل صنمًا غير قابل للمس.

ومن المفارقات أن زولا بالتحديد، خلال قضية دريفوس (1898)، كان هو المعني بسخرية فرديناند برونتيير (صحفي فرنسي كان يسخر من تدخل المثقفين في الحياة العامة أثناء تلك القضية) التي استلهمها بالتحديد من نفس المبادئ العملية التي دافع عنها موريه بطل روايته. إن سخرية الصحفي المحافظ الشهيرة، التي لا تقل غباءً عن سخرية موريه لأنها تلقي الضوء على الانحياز المتحذلق للمفكر الذي لا يقل غباءً في أنه لا يملك مهارات تخصصية، و"شهادات" تعليمية تبرر تدخله في النقاش السياسي القضائي. إن زولا الذي يتدخل في مسألة "القضاء العسكري" يشبه "عقيداً من الدرك" يناقش "أصول الرومانسية".

يمكننا اليوم حتماً أن نرى أن برونيتير قد انتصر: لقد حُرم المثقف اليوم من الرأسمال الرمزي الذي كان يسمح له بالحديث عن الواقع باسم تميز إنتاجه الأدبي أو دراساته الإنسانية. في مواجهة الفقدان الصريح للمصداقية الاجتماعية للأدب وكل العلوم الإنسانية، لكل الأنشطة الفنية، يمكن فهم القلق من أجل (إعادة) إضفاء الشرعية عليها، بشكل متزايد في السنوات العشر الأخيرة، كتبًا ونقاشات ومؤتمرات.

من الصعب أن نحدد - ولو بإيجاز شديد - أسباب أزمة الثقافة الإنسانية: أولاً على المدى الطويل ويتمثل في الانفصال بين الموضوعات التاريخية - الأدبية وبناء الهويات الوطنية وانتشار ثقافة جماهيرية مضلِلة ومضلَلة بفضل وسائل الاتصال الجديدة، وخاصة السمعية البصرية، التي استطاعت إلى حد كبير أن تقتصد في دور المدارس والجامعات والمراكز الثقافية الإنسانية الأخرى. وثانيًا، في أقصر فترة زمنية خلال العقود الثلاثة الأخيرة، الانتصار الشمولي لمنطق السوق الذي يرفض كل معيار آخر للقيمة غير معيار الكم من حيث المبيعات. وربما أيضًا، في المقام الثالث، إذا صحت أطروحة كتاب موثق جيدًا لكريستوفر نيويلد، تصميم ليبرالي جديد ديني النزعة لتفكيك الطبقة الوسطى ونظامها القيمي (المساواة في إمكانيات الصعود الاجتماعي، دولة الرفاهية التضامنية).

لكن يبدو أن الأصعب من ذلك بكثير هو وضع اقتراح نظري متماسك قادر على إضفاء الشرعية على وجود وتمويل العلوم الإنسانية اليوم، دون أن نقبل، كأرضية للمواجهة، بمقدمات منتقديها؛ أي دون قبول الحاجة الملحة، التي لا يمكن إنكارها جزئياً، لإثبات الفائدة العملية لدراساتنا التي تقدمها للسياسة والبيزنس والسوق.

سوف أقتصر على ثلاثة أمثلة متطرفة وكاشفة، بدءاً من أكثر الأمثلة ابتذالاً، إلى أكثر الأساليب تعقيداً، إلى أكثرها تعقيداً في المطلق. في تقديم الطبعة الإيطالية من كتيب مارثا نوسباوم المحظوظ، الذي صدر في الوقت المناسب، قبل بضعة أشهر عن دار "إيل مولينو"، يشعر توليو دي ماورو بأنه مضطر إلى تذكيرنا بشكل قاطع بأن "من لم يتسلح باللاتينية لا يتحكم في استخدام لغاتنا، (يقصد الإيطالية والإنجليزية على وجه الخصوص)". وتوخياً للملاءمة، أستطيع أن أعمم المثل على عالم المال والأعمال: فالمدير القدير، أو المهندس الجيد، يكون أكثر اكتمالاً وأكثر ذكاءً، ويقوم بعمله بشكل أفضل إذا كان لديه قدر من الأدب، وبصفة خاصة الأدب الكلاسيكي.

المثال الثاني: في مقال أثار بعض الجدل في الولايات المتحدة الأمريكية، يرى الباحث الفرنسي هوارد بلوش، أن معرفة أطروحات رينيه جيرار حول الرغبة المماثلة في كتاب بروست "البحث" تمكن المرء من فهم وإتقان آليات سوق الأسهم بشكل أفضل، والتي غالبًا ما تكون مدفوعة بتحليل دوافع الرغبة (والشراء). وقد أقترح تسمية هذا المخطط المنطقي بمصطلح "السراب التناظري"، أو "الاستعاري"، هذا المخطط المنطقي الذي لا يخلو من سحر في كثير من الأحيان، يقوم دائمًا على قياس منطقي سيئ، يمكن تفسيره على النحو التالي: من المسلم به أن النصوص الأدبية تمثل عالمًا من التعقيدات المتشعبة التي لا يمكن تجاوزها في كثير من الأحيان؛ ومن المسلم به أن التعقيد (وهو طوبولوجيا تاريخية مهيمنة منذ أربعين عامًا: ربما حان الوقت لتفكيكها) هو شفرة المجتمعات المعاصرة؛ ويترتب على ذلك أن التأويل النصي يعزز "قدرتنا على صياغة وإنتاج المعنى وفق تلك الآليات المعقدة التي يتطلبها تعقيد أشكال حياتنا الحالية"؛ بل ويطور "نوع الذكاء الأنسب لظروف إنتاج الثروة التي يتميز بها عصرنا الموسوم بالرأسمالية المعرفية".

يقودنا هذا مباشرة إلى المثال الثالث، الذي هو نسخة كاريكاتورية من المثال الثاني: الأدبيات المزدهرة التي تناقش الرأسمالية المعرفية في الفلسفة والتي تستلهم أحدث نظريات توني نيجري العمالي السابق (شيوعي إيطالي راديكالي كان زعيما لمنظمة الألوية الحمراء) الذي، باستبداله المصنع بالجامعة كنقطة ارتكاز لنظام الإنتاج الجديد، التي وجدت مخرجاً من الاستغلال الرأسمالي: لأن البروليتاريين الجدد، الذين يطلق عليهم "المعرفيون"، على عكس أسلافهم أصحاب البدلات الزرقاء، هم أصحاب وسائل إنتاج (عقولهم). صحيح أنه يبدو من الصعب بشكل متزايد على المتساهلين والإنسانيين الإفلات من إغراء قراءة الثقل المتزايد الذي تتمتع به

المعرفة موضوعياً في نظام الإنتاج الحديث المتأخر، فرصة تاريخية تكاد تكون الآن غير مأمولة لخلاص الوظيفة الفكرية. إن الحكايات المسلية لها دائماً جاذبيتها؛ ولكن رغم أن هذا الوهم ليس منطقيا، فلا توجد تسلية في الحكايات بدون رسالة قيمية، ويكفي أن نثبت ذلك لجحافل من الخريجين الذين لا يتقاضون أجوراً أو عاطلين عن العمل (ليس فقط في العلوم الإنسانية).

وفي مواجهة ضعف المخصصات المالية، وقمع الأقسام الجامعية، وفقدان الهيبة الاجتماعية بشكل مذهل، يبدو أن الاستجابة الحكومية لشرعية تدريس مناهج العلوم والدراسات النظرية، غير فعالة تمامًا. ولكن وجب علينا أن ننبه إلى أنه من خلال دراسة الإنسان، نستطيع على أن نعيش (على حد تعبير سبينوزا) "حياة إنسانية صحيحة". إن خيبة الأمل التي تهيمن علينا تنصحنا بالأحرى أن نثق في البراجماتية التي أظهرتها نوسباوم في كتيبها. من خلال تعريف التعليم الإنساني بـ"المنهج السقراطي" (الفحص النقدي المنفصل عن أي سلطة تفرضها التقاليد) وتحديد القدرة على التعاطف (تبني وجهة نظر الآخر، والمعاناة من أجل ألم الآخر) باعتبارها جوهر التجربة الجمالية، حيث تقيم المؤلفة معادلة سهلة بين الديمقراطية الليبرالية من جهة والدراسات الأدبية الفنية الفلسفية-الأدبية من جهة أخرى. فالفلسفة توفر "تقنيات التفكير النقدي"؛ والأدب (أو بالأحرى "المخيلة السردية"، التي تتماهى في الواقع مع الرواية) هو "مجموعة من المواقف التي تستدعي استجابة أخلاقية (كيف كنت سأتصرف لو كنت مكان تلك الشخصية؟)، قادرة على تطوير، كما يقول طاغور، 'الحساسية تجاه مشاكل الآخرين'. وباختصار، فإن الدراسات الإنسانية لا غنى عنها لتكوين مواطنين ناقدين ومتسامحين وداعمين. لذلك يجب أن تكون إجبارية، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، للطلاب في السنوات الأولى من جميع الكليات. وهذه، بالمناسبة، ليست فكرة أمريكية على الإطلاق، وكانت المدرسة تتولاها في أوروبا من قبل، حيث تمد طالب المدرسة الثانوية الأساس الثقافي الذي يفتقر إليه طالب الجامعة الأمريكي.

في ألمانيا، وفي مصر أيضا، كانت الدراسات الإنسانية هي الأساس الذي تبنى عليه الجامعات، ولذا نهضت الحياة الفكرية في ألمانيا، التي قاد فلاسفتها المحدثين العالم بأسره، ونهضت أيضا الحياة الفكرية لمصر، ودخلت عصر الحداثة بفضل التعليم الإنساني الذي بدأ مع رفاعة الطهطاوي ووصل إلى أوج تقدمه مع إنشاء جامعة القاهرة التي قدمت أساطين الفكر المصري الحديث. الخلاصة أنه لا نهضة ولا حضارة ولا تقدم بدون الدراسات الإنسانية والعلوم الاجتماعية مهما كان ضغط السوق.